

المتدميرية الحضارية  
بقلم المفكر التنموي: إبراهيم تاج  
Email: ibrahimtaaj@gmail.com

كان يودي بدء الحديث بعوامل البناء.. لا بمعاول المهدم  
ولكن هكذا هو الحال في التحليل والفكر الاستراتيجيين فالبحث غالباً ما يبدأ من كواامن التهديدات وليس من مكامن التحديات.. فكل  
حضارة تتهددها كثير من الأخطار والمخاطر الخارجية منها والداخلية  
فالأصل في الإدارة منع الخسارة.. والحكمة في التدبير محاربة التبذير أو المهدر  
فمن إدارة مكتب صغير إلى تدبير أمة.. فالقوانين هي نفسها تركز على الاستراتيجيات والتطهير □  
ومن يقظة الفكر الانتباه إلى وجود شبه إجماع بين من أدلوا بدلائهم في موضوعات الحضارة والنهضة.. من مختلف المشارب الفكرية  
والروافد العلمية والتعدديات العرقية.. وهو ما يتطابق مع قوله تعالى:  
﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلُهَا كَانُوا لِلَّذِينَ لَا يَدْرُونَ بَلَاءَ اللَّهِ أُولِي الْأَعْيُنِ ۗ﴾ المائدة: 59

- الظلم والظلامية.. المظلم والمجهل..

وهما أعدى أعداء البشرية.. لأنهما غريزة الإنسان.. وطبيعة أولى فيه.. وطبيعة ثانية في شخصية الإنسان غير المتحضر.. أنصت إلى قوله  
تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا  
جَهُولًا﴾ المآزر: 72

والجهد أعظم المظلم.. لأنه ظلم للذات والمشارك أعظم الجهل لأنه ظلم لنواة المنظومة وهي معتقداتها  
قال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ لِقَمَانَ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعْزُّهُ يَا بَنِيَّ لِمَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: 13  
- والمظلم في حديثنا هو المهادم الأول لمنظومات الحضارة.. □

فهو سبب الاختلال لان التوازن يحققه العدل عامة والقسط خاصة.. ونواتج ذلك تظهر على كل مستويات المنظومة والمهموستازيا.. □  
وبما أن الوحدة - بفتح الواو - هي غاية الغايات في المنظومات.. فإن الفرقة - بضم الفاء - هي أخطر المخاطر كلها وأساء الكوارث..  
فالوحدة للمنظومات بقاء والفرقة لها فناء.. هو قانون يجب إلما ينسى  
فكل منظومة تسعى إلى لم شتاتها.. كأم تجذب إليها صغارها  
كل الأجزاء تنجذب نحو مركز المنظومة نحو ذواتها.. ونواة المنظومات الحضارية هي إيديولوجيتها الملفوفة المتراسة  
بالمعتقدات الجمعية والتراث الجماعي.. ففعلها هي شمس المجموعة وكل ما حولها يدور في فلكها. □

2

ويبدأ المظلم في أعماقنا حيث تنسج الدواضع الدفينة ثياب السلوك واتجاهه.. والاتجاهات أهم من السلوكيات بحد ذاتها - فمن طابت  
سريرته حمدت سيرته.. وحيث تمارس المتدميرية الذاتية طقوس العبث والهدم وهي تلبس أسمال السواد - كطائفة عبدة الشيطان -  
وأشكال العدوان الخبيث الذي يتجاوز ما هو دفاع بيولوجي تحكمه النية الإيجابية للبقاء.. إلى ممارسة من طبع شرير يتقد شرره من  
نيران الشهوة الشيطانية.. شهوة يختلط في بوتقتها القسوة والإفناء.. وبلغة التحليل النفسي هي السادية والنيكروفيليا.. طهي بلا  
رائحة لأنه لا حياة فيه ولما احساس.. فتخيل معي كيف ستكون النتيجة من وصفة ظلامية كهاته.. هو سم للأسف نتجرعه كل حين..  
وقد ينتهي بانشطار النواة وإفناء المنظومة التي ديدنها البقاء.

لا شك أن الحديث عن الحضارة هو مهرجان من المقاربات.. ومن دراساتي المتعددة تعلمت المرور عبر المناهج.. ولذلك فحين أتحدث  
عن المتدميرية الحضارية أجدني مرغماً أن انطلق من سيكولوجيا الأعماق وأن أصغي لذاتي أولاً ثم أنصت إلى واحد ممن أتقنوا تشريح  
البنية المتدميرية البشرية.. طبعاً أقصد هنا إريك فروم وهو يناقش موضوع العدوانية وهو بدوره ينطلق من أعمال كونراد لورنتس  
في مسالة سيكولوجيا الحيوان.. وما يهمننا هنا هو كشف أعمق قوة مدمرة للذات.

ويفرق فروم بين العدوان كدافع أولي متكيف بيولوجيا هدفه النمو.. وهو ما يتجلى عبر سلوكيات الدافع عن الذات والمصالح أو

محاولات الهرب من كل ما يسبب لنا الأذى والألم سواء كان جسدياً أو نفسياً.. وهذا دافع مشترك في عالم الحيوان. وبين العدوان الخبيث الذي لا يوجد إلا لدى الإنسان.. ومنشؤه القسوة والشهوة ويظهر على شكل رغبة في إقصاء الآخر من الوجود كلياً أو جزئياً ودونما سبب رغبة في تعذيب الآخر والتسبب في شقائه والتلذذ بذلك.. كأنه يستمتع بركيام جنازتي من أهات الناس. وكما يوضحها صاحب كتاب القرد العاري: فالهزيمة هي ما يطمح إليه العدو وليس القتل الهيمنة أو التحكم هما هدف العداة وليس الإبادة... لذلك فقتل هابيل لقابيل هو عدوان خبيث غير مبرر بيولوجياً ومن عجيب الأمر أن من يسعى إلى تدمير الآخر فهو ابتداء يدمر ذاته وانتهاء يدمر الحضارة التي يحمل في جوفه فكرها ومعتقداتها.. بل يدمر الإنسانية كلها.

يدمر ذاته إذ القسوة هي جفاف قبل أن تكون جفاء.. لأن العواطف البشرية تحول الإنسان من مجرد شيء إلى بطل.. كما يقر بذلك إريك فروم.. لذلك فهو يحول نفسه إلى شيء بارد كالجليد لا يصلح للنماء

يدمر ذاته حين يبتعد عن حب البقاء إلى حب الفناء.. من إيروس إلى تاناتوس - استغفر الله - حسب مؤسس مدرسة التحليل النفسي سيجموند فرويد.. فالحقد والحسد والكراهية وأمراض القلوب هي المهلكات التي تدمر أصحابها.. دينهم وديناهم.

لا شك أن مسببي الحروب ومجرمي المجازر هم على قمة هرم المدمرين حضارياً.. ولكن لا تغتر بفضاعة جرم من قتل.. فمن كان مسؤولاً عن مصلحة الناس وهو يجلس على مكتبه القديم.. فليعلم أن أبسط تعطيل للخدمة وأن أي تسويق لأداء معاملاتهم هو تلذذ خفي وتعذيب للآخر وهذا نوع من التدمير التي ستسبب له الاحتراق نفسياً كان أو وظيفياً وتسبب للآخر الاغتراب وتسبب للمنظومة التدميرية والضبابية والظلامية التي تنطلق من العمى وتقع فيه وتفاقمه.. كذلك الأم الجافية والأب الدكتاتوري.. أظن أننا سنفتح فضاء في عقولنا لكشف سلوكياتنا المدمرة للحضارة الخفية منها والجلية الكبيرة منها والصغيرة.

3

الظلم عدو للتنمية الذاتية والتنمية البشرية والتنمية المستدامة بأبعادها المجتمعية والاقتصادية والبيئية.. والجهل محرکها ومبتدأها.. هكذا بلغة أخرى.

فلماذا يظلم.. لأنه يجهل ويظن بجهله أنه سيربح بظلمه ويحقق مصلحة.. وهو يجهل أنه يعيش في منظومة كونية.. حيث مصلحته ومصلحة الجميع واحدة.. فإن كنت لا ترى ذلك فاعلم بأنك مصاب بمرض خطير.. هذا المرض هو سبب كل المصائب التي نحن فيها.. البشرية تعاني لأن أفراداً منها طغى عليهم العمى.. فصارت لا ترى مصلحتها أين هي؟ ولما كيف تحققها؟ ولما كيف يسعد لينجح ثم ينجح فيسعد؟ فأني سعادة تعيشها ومن هم من حولك تعساء.. حتى ولو كان أنانياً ويغلبه حب الذات فالعقل يدرك أن المتاجر يحب الزبائن المرتاحين مالياً.. وأن الرضاة يولد الرضاة.. وأن المنظومة تمشي على قدر أضعف أجزائها.. ولكنه عمى ليس كالعمى.. لا تعمى البصائر فقط بل والضماير.